القديس اغناطيوس ده لويولا (١٤٩١ ـ ١٥٥٦)

ورهبانيته اليسوعية

بقلم الاب رفائيل غله اليسوعي

في كل انحاء العالم تحتفل الرهبانية اليسوعية هذه السنة احتفالاً عظيماً بمرور اربعمئة سنة على وفاة مؤسسها القديس اغناطيوس ده لويولا ، الذي قد زار مسقط رأسه في شهري آب وتشرين الاول من العام الماضي نحو مئة وخمسين الف زائر.

وايمُ الحق كان من اعظم اولياء الله تعالى بسمو فضائلهِ وبالخير الكبير الذي صنعه الى ملايين البشر بذاته وبواسطة بنوات اتباعه اليسوعيين، المنتشرين منذ اربعة قرون في اصقاع العالم ، من مشارقه الى مغاربه. العظماء نوعان: منهم من يشبه المذنَّب ، الذي يشق عنان السماء بسهم ساطع من ضيائه ، ثم يغيب عن الانظار والقلوب . ومنهم من ضارع الشمس التي لا تزال ، منذ برأها الإله القدير ، تضيء وتُنعش مليارات الناس وسائر الكائنات الحية. ولا مراء في كون مؤسس رهبانيتنا رجلاً عظيماً من هذا النوع الثاني .

كان سليل عائلة شريفة ، وقد وُلد سنة ١٤٩١ في قصر لويولا (Loyola) ، وهي بلدة صغيرة ، واقعة في شمال اسبانية ، في قسم تلك البلاد الذي يسكنه البسكيون ، وهم قوم محراب باسل ، ابلى بلاء حسناً في مقاتلة غُزاته ، وهو يتكلم حتى الآن بلغة مجهولة الاصل ، لا شبه بينها وبين سائر لغات اوربة ؛ وقد ورث اغناطيوس عزمه الفولاذي وعلو نفسه من اجداده النبلاء . سنة ١٥٢١ ، وهو ضابط في جيش نائب ملك ناڤارة ، دافع في احرج المواقف دفاع الابطال عن قلعة مدينة بمپلونة (Pamplona) التي حاصرها الجنود الفرنسيون ، فأصيب بجرح ثقيل، ونُقل الى قصر اسرته ، حيث تحتم عليه ان يلزم الفراش اشهراً عديدة . في تلك الآونة اشتدت عليه وطأة البطالة والضجر، فطلب من اهله روايات غرامية يسلو بها مصيبته الفادحة،واذ لم يجدوا شيئاً منها، اتوه بحياة السيد المسيح وسِيَر القديسين .

اول وهلة نفر اشد النفور من تلك المطالعة ، لانه كان خاطئاً قد تمرغ الى ذلك الوقت في حمأة المعاصي . بيد ان روحه السامية وعقله الثاقب ما لبثا ان اكتشفا في فضائل مئات القديسين المثل الاعلى للبطولة العُليا التي تكبح على الدوام جماح الذ الشهوات السافلة ، ولا سيما الكبرياء والعهارة ، بل تسحقها سحقاً ، فتتحرر من نيرها المُذل وتتمكن من الارتقاء الى ذرى الحب الكامل لله تعالى وللانسان المخلوق على صورته .

قصد اغناطيوس بهمته القعساء ان يحذو حذو القديسين ، فهجر العالم ومجده الزائل وملذاته الباطلة ، واختلى نحو سنة في مغارة ، ببلدة منريسة (Manresa) ، عاكفاً على الصلاة والتأمل والتكفير عن خطاياه بانواع التقشف الهائل . على ذلك الوجه جرى شوطاً رائعاً في طريق الفضيلة الوعر . لكن موونته من العلم كانت زهيدة ، فرضي بمجالسة التلاميذ الصغار في مدرسة ابتدائية لدرس اللغة اللاتينية ، ثم اكبّ على درس الفلسفة واللاهوت في وطنه ، وبعدئذ في كلية باريس من سنة ١٥٢٨ الى ١٥٣٥ . في ذاك المعهد الشهير اختار ستةً من الطلاب المبرزين مثله في الفضيلة والعلم ، ليؤازروه طول حياتهم على تمجيد الله وتقديس النفوس ، ثم انضوى اليهم عشرات من اندادهم ، فنشأت الرهبانية اليسوعية سنة ١٥٤٠ .

القديس اغناطيوس قد ابتكر نوعاً جديداً من الحياة الرهبانية . لم يعيّن لرهبانه ثوباً مختصاً بهم ، واعفى الكهنة من التلاوة الجهورية للصلوات التي تفرضها الكنيسة عليهم ، لانها تحول دون القيام السريع بانواع الخدم للقريب . اعفاهم ايضاً من الاقامة الدائمة في الدير ، ومن التقشف الشديد ، المانع انضواء آلاف من ذوي الصحة المتوسطة الى رهبانيته . فضلاً عن ذلك لم يحصر سعي اتباعه في نطاق ضيّق من الاعمال ، بل وسّع ميدانه الى الدرجة القصوى ، في كل ما يؤول الى تمجيد الله تعالى وخير البشر . كانت رهبانيتنا حين نشأتها مؤلفة من سبعة اعضاء ، ذوي ثقافة عالية ، دينية وعلمية . نفوذ اولئك النوابغ وسمو قداستهم ، ومن جهة اخرى مرونة قوانينهم قد ادّت الى سرعة انتشار رهبانيتهم ، فصار ابناؤها نحو الف ، في كل انحاء العالم ، من اليابان الى اميركة الجنوبية حين وفاة مؤسسها سنة ١٥٥٦ ، بعد انقضاء ستة عشر عاماً فقط منذ انشائها . في اواخر السنة الماضية كانوا ٣٢٨٩٩ ، وهو اكبر عدد في رهبانيات

الرجال[1] . لا يجاري الولايات المتحدة قُطر من اقطار العالم في كثرة اليسوعيين، فقد كان منهم فيها ٧٧٥١ العام الماضي .

قلتُ ان مؤسسنا قد وضع قوانين رهبانية مبتكرة ، تضمن لجميع ابنائه ادراك اوج الكمال في خدمة الله والبشر ، ومن اوضح البراهين على عبقريته انه لم يحدث ، بعد اختبار اربعمئة سنة ، ادنى تغير جوهري في تلك القوانين التي عليها طابع حكمة الهية محضة—وقد اقتبس زبدتها عشرات من الرهبانيات الحديثة — وأن كل اليسوعيين الدائبين على التقيد بها قد بلغوا ذروة الكمال . حان لي ان اقدم للقراء حفنةً من كثيب مآثرهم في اكبر ميادين سعيهم، معتذرًا عن كون الموضوع يضطرني الى تعظيمهم ، وواجبًا ان ينسبوا جميع تلك المحامد الى الله — عز وجل — لانه مصدرها الوحيد .

الغاية الاولى التي رمى اليها مؤسسنا الغيور، هي ان يكون ابناؤه قديسين، وقد تم ذلك بدرجات متباينة في كثير منهم ، واصبحت رهبانيته حديقة غناء ، مزدانة بأجمل زهور القداسة الرائعة التنوع. سنة ١٩٥٤ كانت قد انجبت رهبانيتنا، بمنه تعالى ، من ابطال الفضيلة الذين حُققت مآثرهم السامية والمعجزات التي صنعوها بعد موتهم ادقّ التحقيق ، سبعة وعشرين قديساً و١٣٩ طوباويًا . ما عدا اولياء الله اولئك الذين يسوغ ان نسميهم رسميين، قد امتاز عندنا بالقداسة آلاف مؤلفة غيرهم ، وقد نُشر ملخص سير نحو عشرة آلاف منهم في عدة مجلدات ضخمة .

اما عدد شهدائنا الذين سفكوا طوعًا دماءهم النقية ، في سبيل السيد المسيح ، فهم نحو الف .

من الواضح ان في مقدمة الاشغال المفروضة على رهباننا تقديس النفوس . وقد دل الاحصاء — وهو ناقص جدًا لاستحالة اجرائه في ثمانية بلاد شيوعية — ان في سنة ١٩٥٤ قد القى اليسوعيون التعليم المسيحي ٦١٨٠٠٠ مرة ، فضلًا عن ٥٦٤٠٠٠ موعظة ونحو ١٩٥٠٠ رياضة ، وكل رياضة سلسلة عظات تدوم من ثلاثة ايام الى شهر، وفقًا للظروف ، وقد حضر تلك الرياضات ٩٦٩٠٠٠ شخص

---

١) من اولئك اليسوعيين ١٦٥٢١ كاهنًا و١٠٧٦١ شخصًا مستعدًا للكهنوت و٥٦٣٧ اخًا قائمًا بالاشغال اليدوية .

ونيف . رهباننا لا يكتفون بالقاء المواعظ في الكنائس والاديار والمدارس ، بل حيثما تسنى لهم الفوز بها ، حتى في السجون . الاسبانيون منهم قد اعتادوا ان يعظوا ستة ايام متوالية في المعامل والمناجم ، وقد سمع مواعظهم ، سنة ١٩٥٠ ، ٢٧٠٠٠ عامل ونيف ، في ٥٦ معملاً .

لنا ايضاً في انحاء العالم ، عدد كبير من معاهد مختصة بالرياضات الاختلائية ، يقضي فيها من ثلاثة ايام الى شهر ، في الصمت الكامل جماهير متتابعة من الكاثوليك ، لسمع المواعظ والتأمل في مواضيعها . كان لنا سنة ١٩٣٧ مئة واربعة من تلك المعاهد ، وقد ارتاض فيها عامئذ ٦٨٠٠٠٠ شخص ونيف .

اليسوعيون اينما كانوا ، دائبون على توزيع الاسرار المقدسة . سنة ١٩٥٤ عمدوا ٢٠٢٬١٣٧ شخصاً ، واعدّوا لاول تناول ١٢٢٬٣٨٤ وكان عدد المناولات في كنائسهم ٥٩٬٨٩٣٬٠٠٠ .

في السنة ذاتها كان من اجمل اثمار خدمهم للنفوس اهتداء ٣٦٬٥٠٦ اشخاص بالغين .

اراد مؤسسنا ان تكون الفضيلة والعلم في رهبانيته توأمين متلازمين ؛ ولا بدع بذلك ، فان العلم يزيد سطوع الفضيلة وتوق الناس الى الاقتداء بها ، وهو ايضاً في مقدمة العوامل للترقي الادبي والمادي . لذلك قد فرض القديس اغناطيوس على جميع ابنائه المستعدين للكهنوت تسعة اعوام دراسة عالية ، منها اثنان للغات والآداب ، وثلاثة للفلسفة واربعة للاهوت . علاوةً على تلك الثقافة العامة ، يسهّل على ذوي المواهب الخاصة منهم التعمق والنبوغ في جميع فروع العلوم والآداب والفنون الجميلة ، ويُثير همتهم على التأليف المبتكر فيها . قد نزل اليسوعيون عند رغبته منذ نشأتهم الى ايامنا ، فكانوا ينشرون ، سنة ١٩٤٠ ، ٦٨٥ مجلة دينية او علمية او ادبية .

فضلاً عن ذلك قد وضع رهباننا آلاف الكتب في كل انواع العلوم الدينية وغيرها ، وفي ضروب الآداب نثراً وشعراً ، بل في الفنون الجميلة . الاب شرل زومرفوگل (Sommervogel) اليسوعي قد نشر ، بين سنتي ١٨٩١ و١٩٠٠ ، تسعة مجلدات كبيرة الحجم ، حاوية اسماء احد عشر الف كاتب يسوعي ، وذكر مصنفات كل منهم . منذ سنة ١٩٠٠ قد ظهرت عدة كتب لتكملة جدول الاب المشار اليه .

اما كبار العلماء والادباء والفنانين ، فانهم يحصون عندنا بالمئات ، فاكتفي بذكر عدد قليل منهم .

من نوابغ علم الرياضيات الاب البلجيكي غريغوريوس القديس منصور (†١٦٦٧) ، وله اكتشافات خطيرة في ذلك العلم ، وهو من مؤسسي الهندسة التحليلية (Géométrie analytique) .

الفلكيون العظماء كثيرون ؛ هاكم شيئاً يسيراً من مآثرهم .

الاب كريستوف شينر (Scheiner) († ١٦٥٠) قد اكتشف واثبت وظيفة شبكية العين الضرورية للبصر . هو من مؤسسي علم فيزياء الشمس ومكتشف سُفعها ، اي ما يفشاها من البُقع السوداء ، واول مفسّر لسببها ، هو مخترع الهليوسكوب (Héliioscope) ، يعني المنظار ذا زجاج مسودّ او ملوّن لرصد الشمس . قد اخترع ايضاً البنتُگراف (Pantographe) ، وهو آلة تنقل كل الرسوم على وجه ميكانيكي.

الاب حنا رتشولي (Riccioli) († ١٦٧١) الايطالي كان اول المنتبّهين عن اسباب البُقع القمرية .

الاب تسوكي (Zucchi) هو مخترع المرقب ذي مرآة .

الاب فرنسيس گريلدي (Grimaldi) († ١٦٦٣) الايطالي قد اشتهر بابحاثه عن القمر وباكتشافه انحراف (diffraction) النور .

الاب شرل بَرُون (Braun) لم يُجارِ بُجارٍ في تحديد وزن الكرة الارضية على ادق اسلوب .

الاب تسوپي (Zupi) قد اكتشف ادوار السيارة عُطارد .

الاب نقولا سارابا (Sarrabat) († ١٧٣٧) الفرنسي مكتشف اول مذنّب يرقبي ، يعني اول مذنب لا يُرى بالعين المجردة بل بالمرقب وقد اخترع عدة آلات ميكانيكية .

الاب كريستيان ماير (Mayer) († ١٧٨٣) مكتشف النجوم المزدوجة . النجمتان المزدوجتان هما اللتان تدوران حول مركز ثقلها المشترك .

الاب كريستوف (Clavius) († ١٦١٢) الالماني قد ساعد البابا غريغوريوس الثالث عشر على اصطلاح حساب السنين .

الاب انجلو سيكي (Angelo Secchi) († ١٨٧٨) الايطالي مشهور بتؤلفاته على

تركيب الشمس ، وكان اعظم الاختصاصيين المعاصرين في تحليل طيفها ، وقد اخترع المتيوروگراف (météorographe) ، وهو الجهاز المسجّل تغير الاحوال الجوية.

الاب غليوم ستّين (Stein) († ١٩٥١) الهولندي ، كان مدير مرصد الفاتيكان الفلكي ، وقد اشتغل ثلاثين عاماً ، بمساعدة فريق من اشهر الفلكيين ، لتأليف جدول النجوم في احد عشر مجلداً. ذلك الجدول يحتوي الصور الشمسية وتعيين الاقيسة والحركات لاكثر من ٥٥٥،٠٠٠ نجمة ، وقد عده العلما. كتاباً اساسياً في علم النجوم .

حول سنة ١٩٥٠ اكتشف فلكيان يسوعيان يشتغلان في مرصد الفاتيكان مذنباً ، فسُمّي باسميهما مذنب لكلير وميلر (Leclaire-Miller) ، واكتشف الاخ تيمرس (Timmers) اليسوعي من ذلك المرصد مذنباً آخر ، فوُسم باسمه .

من اعظم خدمنا للعلم ان لنا عدداً كبيراً من مراصد الاحوال الفلكية والجوية ، في انحا. العالم . من اشهرها اثنان في مانيلية وفي مدينة زيكاوه (Zikawé) الصينية ، وهما يحددان وقت هبوب الاعاصير التي فيها خطر شديد على الملاحة في المحيطين الهادي. والهندي ، ويعينان ايضاً وجهتها ودرجة شدتها . قد عرّف مرصد زيكاوه حدوث الف إعصار ونيّف ، فخلّص مئات آلاف البشر من شرورها . يجدُر في هذا المقام ذكر مرصدنا في كسارة بلبنان .

الاب شرل پواسون (Poisson) ، مدير مرصد تناناريف في جزيرة مدغسكر ، قد نال حول سنة ١٩٣١ من محفل العلوم المختصة بالمستعمرات ، في باريس ، مكافأة على كتابه في شأن المعرفة السابقة للاعاصير الحادثة في النصف الجنوبي من الكرة الارضية .

الاب راميرس (Ramirez) اكتشف طريقة لمعرفة مركز العواصف البحرية ، فوقى الملاحة من اخطار هائلة ، وقد جنى اسطول الولايات المتحدة اجلّ الفوائد من ذلك الاكتشاف في الحرب العالمية الثانية .

الاب يعقوب ماسلوان قد انتُخب حول سنة ١٩٢٨ مديراً لجمعية مراصد الزلازل ، التي كان لها عاشر في الولايات المتحدة مئة واثنان وثلاثون من تلك المراصد .

الاب اونوره فبري (Fabri) († ١٦٨٨) الفرنسي قد اكتشف دوران الدم في الجسم.

الاب يوسف إكهل (Eckhel) († ١٧٩٢) النمسي هو مؤسس علم المسكوكات القديمة على اساس علمي .

الاب تيار ده شردان (Teilhard de Chardin) († ١٩٥٥) من اعظم العلماء في الجيولوجية وعلم اصل الانسان . كان من اعضاء محفل العلوم الباريسي ، وقد فاز بجائزة من اكبر جوائزه مكافأةً لاكتشافاته الخطيرة إبان الحفريات التي قام بها في الشرق الاقصى .

الاب [illegible]س يوهنس (Johanns) († ١٩٥٥) البلجيكي قد اشتهر بتعمقه في درس الفلسفة امد [illegible] الف ستة كتب عليها . في شرخ شبابه ، حين فحص اساتذة جامعة كمبردج (Cambridge) مصنَّف له في الفلسفة ، أعجبوا بعبقريته اشد الاعجاب ، فصرحوا بان نابغة مثله لا يظهر [illegible] راحدة في كل عصر .

امّا مآثر اليسوعيين في ميدان اللغات ، فقد نوَّه بها اللغويون مرارًا . رهباننا قد مهّدوا الطريق لدرس اللغة السنسكريتية ، وهي من اقدم لغات الهند ولهم قصب السبق في معرفة اللغة الصينية ، وقد ألفوا اول القواميس وكتب القواعد لعدد كبير من ألسن القبائل المتوحشة .

هاكم الآن اسماء نوابغ آخرين من رهباننا في علوم غير المذكورة .

الاب سبستيانس رُنزنفل (Ronzevalle) († ١٩٣٧) قد منحته الحكومة اللبنانية وسام الاستحقاق ذا السعف ، اقرارًا بخدمه الجليلة لعلم الآثار الشرقية .

الاب هنري لامنس (Lammens) († ١٩٣٧) البلجيكي قد ذاعت شهرته في الخافقين بمؤلفاته الرائعة على نشأة الدين الاسلامي وتاريخه .

الاب إريش فسمان (Erich Wasmann) († ١٩٣١) الالماني كان من اشهر نوابغ العالم في علمَي النمل وغرائز الحيوانات .

الاب توت (Toth) المجري قد فاز حول سنة ١٩٢٩ بوسام من حكومة بلاده ، تعظيماً لكتابه على معادن المجر ، وقد حظي باعجاب العلماء الاختصاصيين .

الاب يعقوب مركت (Marquette) († ١٦٧٥) الفرنسي قد اكتشف في الولايات المتحدة ، نهر ميسيسيبي (Mississipi) الذي طوله ٤٦٢٠ كيلومترًا .

الاب پائث (Paëz) كان اول الباحثين عن منبع النيل .

الاب مرتيني (Martini) († ١٦٦١) ورفقاؤه قد رسموا ادق مخطّط في جيلهم

لبلاد الصين ، وقد صرح الاختصاصيون بانه من اجلّ المآثر في علم الجغرافية.

الاب فرنسيس لانا (Lana) († ١٦٨٧) الايطالي قد اخترع اول منطاد .

اليسوعيون قد اكتشفوا فائدة الكينا لعلاج الحمى ، ومن ثم قد سُميت ، في اول عهد استعمالها ، مسحوق اليسوعيين . وقد وسعوا نطاق علم النبات باكتشافهم عدداً كبيراً من النباتات .

الاب اثناسيوس كِرشر (Kircher) († ١٦٨٠) قداخترع المرآة المحرقة والفانوس السحري والأرغن الرياضي .

الاب دشفرنس (Decheverens) معاصرنا الفرنسي اخترع آلة ترسم بتخيير موضع اجزائها ، آلافاً من ابدع الرسوم ، التي يعيا امهر الرسّامين عن تصور اكثرها.

اما ادباؤنا المشاهير فانهم يفوقون علماءنا بعددهم ، وقد اضافوا الى كنوز الآداب اللاتينية واليونانية وعشرات من اشهر اللغات الحية جواهر نثرهم وفرائد شعرهم . لا يسعني ان احدثكم عنهم ملياً، فاجتزئ بذكر بعض الراحلين الذين خلّدوا اسماءهم المجيدة في تاريخ لغة الضاد وآدابها ، واكثرهم من معاصرينا .

الاب لويس شيخو († ١٩٢٧) اسس مجلة المشرق سنة ١٨٩٨ ، وحرر معظم مقالاتها ، واصدر منها مدة ربع قرن خمسة وعشرين مجلداً ، يحتوي كلٌ منها نحو الف صفحة كبيرة . له فضلاً عن ذلك ، عشرات المؤلفات النفيسة ، ومن اشهرها « مجاني الادب في حدائق العرب » في ستة اجزاء ، طُبع بعضها ثلاثين طبعة ، وقد اضاف اليها ثلاثة كتب حاوية الشرح اللازم لقطعها ومعلومات كثيرة على مؤلفيها . من اجلّ مصنفاته ايضاً «علم الادب في الانشاء والعروض والخطابة» ، « فقه اللغة» ، « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» ، « شعراء النصرانية قبل الاسلام وبعده» ، « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » . هو الذي انشأ القسم الشرقي من مكتبة كليتنا في بيروت ، وقد زار اكبر مكاتب اوربة ، وعانى مشاق اسفار بعيدة حتى الهند ، ليقتني او ينسخ انفس الكتب والمخطوطات. قد منحته حكومة لبنان وساماً قالت في وثيقة اهدائه : « قد خدم الاب شيخو لبنان خصوصاً وبلاد المشرق عموماً، بما نشره من التآليف عن تاريخها وآثارها وعلومها، حتى بلغت مطبوعاته مئة وعشرين مجلداً ، فاستحق شكر لبنان » .

الاب لويس معلوف († ١٩٤٦) ادار جريدتنا البيروتية البشير ثلاثين سنة. قد ذاعت شهرته في العالم العربي وبين المستشرقين بتأليفه «المنجد» وهو القاموس العربي المصور، المحتوي على صخر حجمه، زبدة مواد اشهر المعاجم. صدرت طبعته الاولى سنة ١٩٠٨، ثم اضاف اليه المؤلف نحو ٣٥٠ طفحة في الطبعة الخامسة، وقد بلغ عدد النسخ المطبوعة منه حتى الآن مئة وخمسة وعشرين الفاً.

الاب انطون ص. ني († ١٩٤١) قد نشر بمساعدة المستشرق الشهير اغسطس هفنر (Hafner)، كتاب «اتحاد الضاد» بين دفتيه مخطوطات نفيسة لاربعة من ائمة اللغويين العرب، ولم يكن احد قد عُني قبلة بطبعها. قد خدم المدارس اجلّ خدمة بطبعه «روايات الاغاني» في جزئين، اقتبس موادهما من كتاب الاغاني الذائع الصيت، لابي الفرج الاصبهاني، وقد ظهرت طبعتها الثالثة سنة ١٩٣٦. اما اشهر كتبه فهو ديوان الاخطل، شاعر بني أُميّة المسيحي، وقد نشره سنة ١٨٩١.

الاب خليل إده († ١٩٤٢) كان اخا اميل ده رئيس الجمهورية اللبنانية. قد الّف عدة روايات تمثيلية، ومن اشهرها السموأل. له ايضاً كتاب «القواعد الجلية في علم العربية» في ثلاثة اجزاء، وهو ممتاز بشدة الوضوح وحسن التنسيق.

الاب دونا ڤرنيه (Donat Vernier) († ١٩١٧) الفرنسي قد الّف بالفرنسية كتابين ضخمين، يحتويان نحو الفي صفحة، على قواعد العربية، فضمّن ذلك المؤلّف، الذي هو نسيج وحده بين امثاله، ادق ما ذكره، حتى من شوارد لغتنا الكثيرة، اشهر النحاة القدماء واخلافهم، ورتّب مئات مواد الصرف والنحو والعروض ترتيباً رائعاً، فلم يترك زيادة لمستزيد. وقد صنّف ايضاً عدة كتب عربية بلغة ائمة ادبائنا الاقدمين، مما يعجز عنه اعلى كتابنا المعاصرين كعباً.

الاب حنا بلو Belot († ١٩٠٤) الفرنسي قد بذل قصاراه عشرات الاعوام، لتأليف اجود القواميس للغتين الفرنسية والعربية معاً. قاموسه العربي الفرنسي الكبير قد طُبع ست عشرة طبعة؛ اما الصغير فخمس عشرة طبعة، بلغ مجموع نسخها مئة الف. قاموسه الفرنسي العربي الكبير قد صدرت طبعته الثالثة سنة ١٩٥٢؛ اما الصغير فقد أُعيد طبعه ثلاثاً وعشرين مرة. وقد انتشرت كل هذه المعاجم بين ابناء الضاد وآلاف المستشرقين في جميع انحاء العالم.

فضلاً عن كبار علمائنا وادبائنا الذين يُحصون بالآلاف ، قد نبغ كثير منا في الفنون الجميلة ، ومن جملتهم بين المعاصرين الاخ بسكو (Besqueut) النحات الفرنسي الشهير ، ومواطنه الاب يوسف گيرمان (Guillermin) صاحب المؤلفات الموسيقية الفاتنة .

اراد ابونا القديس اغناطيوس ان نحشد كنوز القداسة والعلم لكي نُغني بها الناس . والحال ان خير واسطة لارساخ الفضيلة في النفوس ، بحيث تقوى على مقاومة وساوس الشيطان وعواصف الشهوات ، هي تهذيب الانسان منذ طفولته ، على اساس الدين الوطيد . من ثَم وجب على اليسوعيين ، بُعيد نشأتهم ، فتح مدارس عديدة في انحاء العالم. طريقتنا في تهذيب التلاميذ ليست مدعومة على المراقبة الشديدة وانواع القصاص العنيف، بل على تعريف الواجبات، وحث الارادة على تتميمها اكراماً لله تعالى ، مع التدريج في اطلاق حرية معتدلة للطُلاب ، بنسبة نمو قواهم الروحية والجسدية . اما اسلوب تعليمنا ، فهو يرمي الى تثقيف كل قوى النفس ، اعني العقل والارادة والشعور والمخيلة والذاكرة ، في آن واحد ، وفقاً لسن التلاميذ ومقدرتهم. فلا بد ان يكون اساسه تدريس اللغات ولا سيما الآداب التي تتعاون على صوغ جواهرها جميعُ قوى النفس . بخلاف ذلك ، توسع العلوم ، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها ، تطاق العقل ، وليس لها تأثير يُذكر في الارادة والشعور والمخيلة ، فمن الصواب ان نمدّ تدريسها تتمة ضرورية للتثقيف الكامل ، لا اساساً له .

قد اتضح ، بعد اختبار اربعمئة سنة ، ان طريقة تهذيبنا التلاميذ وتعليمهم هي المثلى ، وقد شهد على ذلك آلاف الشهود الثقات غير الكاثوليك .

قال الاستاذ كورنز (Körner) البروتستاني في كتابه على تاريخ فن التثقيف ، ان طريقته العلمية قد نشأت مع مدارسنا الاولى .

حين زار حُسين كامل ، سلطان مصر ، مدرستنا الثانوية في القاهرة سنة ١٩١٦ ، قال لرئيسها : « هذه زيارتي الاولى لمدرستكم ، لكني اعرفها بواسطة الرجال الذين انجبتهم ، وانا مُعجب بطريقة تعليمها الحاوية التهذيب الخُلقي والتثقيف العقلي .

خلفه الملك فؤاد الاول ، قصد ترقية التهذيب في مدارس الحكومة التي

انشأها ، فقرأ نظام مدرستنا السابق ذكرها ، وقال الشخص من بطانته تخرج فيها : « أوضح لي كيف استطاع الاساتذة اليسوعيون ان يدركوا في التهذيب والتعليم ، ذلك المثل الاعلى الذي عجزتُ ، مع بذل كل جهدي ، عن ادراكه في مدارسنا » .

هاكم الآن بعض التفاصيل العامة والخاصة على مدارسنا :

سنة ١٩٤٠ كان ٣٥٠٠ يسوعي مشغولين في غير بلاد الرسالات ، بتدريس نحو ١٤٠،٠٠٠ تلميذ ، في خمس عشرة كلية و٤٢١ مدرسة ثانوية . في اوائل سنة ١٩٤٨ كان عدد تلاميذنا ، في كل اصقاع العالم ، نحوَ ثمانمئة واربعين الفاً.

مدرستنا الثانوية في بغداد ، التي انشأها سنة ١٩٣٢ فريق من يسوعيي الولايات المتحدة ، ليس فيها صفوف للتعليم الابتدائي . مع ذلك قد ضمت هذه السنة سبعمئة تلميذ ونيفاً ، ونحو ٣٥ في المئة منهم اولاد اعيان مسلمين. قد بلغ ذلك المعهد من النجاح الكامل في التهذيب والتعليم مبلغاً جعل حكومة العراق تهدي لرهبانه ، في طرف العاصمة ، ارضاً مساحتها خمسمئة الف متر مربع ، بشرط ان يؤسسوا عليها جامعة توازر جامعة الدولة في نشر العلوم العالية. من جهة اخرى جادت عليهم حكومة الولايات المتحدة بمئة وعشرة آلاف دولار ، لتحقيق ذلك المشروع الخطير .

الجمعية الكاثوليكية للمدارس المصرية ، التي انشأها سنة ١٩٤٠ الاب هنري عيروط المصري ، تُدير في جميع انحاء مصر مئة وخمساً وعشرين مدرسة ابتدائية مجانية ، وقد انفقت الجمعية على هذه المعاهد ١٨،٠٠٠ ليرة مصرية ونيفاً سنة ١٩٥٠ ، لا تكتفي بتعليم نحو احد عشر الف ولد فقير وتهذيبهم ، بل توزع عليهم الثياب اللازمة ، وتعنى بصحتهم وبعلاج امراضهم .

تكملةً لعملنا التهذيبي والتعليمي في المدارس الابتدائية والثانوية ، قد انشأنا في اصقاع المعمور جامعات عديدة ، ليخرج منها رجال الغد بمؤونة وافرة من الفضيلة الراسخة والعلم الواسع ، تمكنهم من القيام بأجلّ الخدم للدين والوطن. دونكم جدول بعض تلك المعاهد التي اسسناها :

حول سنة ١٩٥٠ كان لجامعتنا في لوفان (Louvain) من مُدن بلجيكية ٧،٥٠٠ طالب بلجيكي والف اجنبي و٦٠٠ طالبة .

لنا في الولايات المتحدة ست جامعات تضم ٤٤٫٠٠٠ تلميذاً وتلميذة . عدد اساتذتها يفوق اربعة آلاف ، ومنهم نحو ٥٤٠ يسوعياً .

في مكسيكو عاصمة المكسيك انشأنا جامعة سنة ١٩٥٣ .

في البرازيل لنا جامعتان في ريو ده جانيرو ورسيفه (Recife) .

في بوكوتة عاصمة كولمبية لنا جامعة تضم الفي طالب وتلميذة ولهم ثلاثمئة معلم.

في الهند كان لنا سنة ١٩٥٠ ، ثلاث وعشرون من المدارس العليا ، وفيها عامئذ ٢٩٫٥٠٠ تلميذ .

كان لنا في الصين ، قبل نشأة الحكومة الشيوعية ، جامعتان احداهما في شانهاي والاخرى في تيان تسين (Tien Tsin) وفي كل منهما زهاء ١٫٢٠٠ تلميذ.

لجامعتنا في توكيو نحو ١٫٦٠٠ طالب ، منهم زهاء ٥٠٠ كاثوليكي ، واكثر البقية وثنيون .

لجامعتنا في بيروت الفروع التالية : اللاهوت ، الفلسفة ، الحقوق ، العلوم السياسية ، الهندسة ، الطب العام ، طب الاسنان ، فن التوليد، فن التمريض، العلوم الشرقية. تضم ١٥٨٠ طالباً و ١٦٩ استاذاً.

لم تكتف بتدريس اللغات والآداب والعلوم ، بل انشأنا في انحاء العالم مدارس اخرى عديدة ، غايتها الخاصة تأمين كسب المعاش بالشغل اليدوي. من اهمها مدارس الصناعات الصغرى ، التي عددها في اسبانية ثلاثون ، وهي تضم نحو ٦٫٥٠٠ تلميذ ، وكذلك مدرسة الطيران التي فتحها سنة ١٩٢٧ الاب پركس Parks في الولايات المتحدة ، وقد تخرّج في اربعة الاعوام السابقة سنة ١٩٤٩ اربعة وعشرين الف طيار .

من جهة اخرى قد اسسنا عدة رهبانيات نسائية لتهذيب البنات، فاشربناها روحنا ودرّبناهن على اساليبنا . نخص بالذكر منها رهبانية قلبي يسوع ومريم الاقدسين، التي وضع اساسها في لبنان الابوان إستاف (Estève) الفرنسي وريكادونا (Riccadenna) الايطالي سنة ١٨٥٣ . هي اول رهبانية معلمات في بلاد الارز ، واكبر الرهبانيات النسائية في الشرق العربي ، فان عدد اعضائها يناهز خمسمئة في ايامنا . كانت غاية تأسيسها تهذيب البنات الفقيرات مجّاناً، فانتشرت بسرعة غريبة في انحاء لبنان وسورية، حيث فتحت في قرن واحد اربعاً وستين مدرسة ،

كانت تضم سنة ١٩٥٢ نحو ١٠٧٧٠٠ من التلاميذ الصغار والتلميذات ، ومنهم زهاء ٦٧٣٥٠ مجانيون . فضلاً عن التعليم تقوم اولئك الراهبات بخدمة عدة مستشفيات وغيرها من المشروعات الاجتماعية والخيرية .

اكثر المهاجرين يغادرون اوطانهم واقاربهم طمعاً بالاصفر الرنان، فلا تُحمد همتهم مشاق الاسفار الطويلة برّاً وبحراً ، واخطارها العديدة، ولا مرارة الغربة، ولا درس لغات جديدة ، والتخلق بأخلاق شعوب اجنبية ، ولو متوحشة . بيد ان المرسلين الكاثوليك يقبلون طوعاً كل تلك التضحيات ، ليوزعوا بسخاء حاتمي كنوز فضـ ـلهم واموالهم على افقر الاقوام بالخيرات الدينية والعقلية والمادية. فلا بدع بكون مؤسـ "الغ اقصى درجات الكمال في حب البشر ، قد بعث عدداً كبيراً من ابنائه ، بصفة مرسلين ، الى ابعد اقطار العالم ، مع فرط طول الاسفار وشدة اخطارها في القرن السادس عشر . قُبيل موته كانت رهبانيتنا مؤلفة من ثمانية اقاليم فقط ، ومع ذلك كان ثلاثة منها في البرازيل والهند واليابان . ولا يزال عدد اليسوعيين يزيد في اربعة العصور الاخيرة، فتكاثر المرسلون منهم بنسبة هذه الزيادة .

سنة ١٩٥٤ كان لنا ٥٧٥٦٣ مرسل، وهو اكبر عدد في الرهبانيات الرجالية. اولئك الرهبان يخدمون ٥٦ رسالة ، منها تسع وعشرون في آسية ، سبع عشرة في اميركة ، تسع في افريقية ، وواحدة في اوقيانية .

في رأس سنة ١٩٢٧ كان لنا ، في بلاد الرسالات، ٣٧٢٩ مدرسة ابتدائية، فيها ١٨٠٠٠٠ تلميذ ونيف ، و٨١ مدرسة صناعية ، فيها ٣٧٠٠ تلميذ ونيف، و٣٣٥ مدرسة ثانوية تضم ٥٣٠٠٠ طالباً ونيفاً ، وعشر كليات تثقف ٤٠٠ طالباً ونيفاً . كل ذلك برضٌ من بعد ، فقد نُشرت منات الكتب على حياة المرسلين اليسوعيين واعمالهم على كل حال يليق هنا ذكر شيء يسير من مآثرهم.

في رسالة پاراگواي (Paraguay) في اميركة الجنوبية ، قد بلغ مرسلونا في القرن السابع عشر من النجاح الفائق في تمدين اهاليها المتوحشين ، وتنظيم جميع شؤونهم ، ما قضى منه العجب اقطاب السياسيين ونوابغ العلوم الاجتماعية .

سنة ١٩٥٤ أقيم الاحتفال بالمئوية الرابعة لتأسيس مدينة سان پاولو في البرازيل. فنصبت الحكومة في افسح ميادين هـذه البلدة تمثالاً جباراً للاب يوسف ده

انكيتا (de Anchieta) († ١٥٩٧) ناشر التمدن في تلك البلاد. على احد جوانب قاعدة التمثال نحتٌ يمثله مصالحاً للقبائل المتعادية .

سنة ١٩٥٥ اقيمت في مدينة امباتو (Ambato) ، في جمهورية إكوادور، حفلات باهرة ، تصدرها رئيس الجمهورية ، تذكاراً لمرور مئتي عام على تأسيس الاب موجيري (Mugeri) الايطالي في تلك البلدة، المطبعة الاولى من مطابع ذلك القُطر .

بعد ما بقيت قبائل اوريكون (Oregon) المتوحشة ، الساكنة في الولايات المتحدة ، خمسة عشر عاماً تحت رعاية المرسلين اليسوعيين ، زارها موظفو الحكومة سنة ١٨٥٤، فعظّموا في تقاريرهم الرسمية تقدمها غير المنتظر في الفضيلة والاجتهاد ، وترقيها المدهش في الزراعة .

الاب يوسف كاتلدو (Cataldo) كان في مقدمة الساعين لتصالح الهنود المتوحشين مع البيض ، في غرب الولايات المتحدة ، وهو من مؤسسي مدينة سپوكين (Spokane) وقد انشأ فيها جامعة .

في اثناء الحرب الناشبة بين الصين واليابان سنة ١٩٣٧ رأى الاب ده بزنج (de Bésange) الجيشين المتحاربين يهدمان المدُن ، والجنود اليابانيين يقتلون الشيوخ والنساء والاطفال ؛ فحصل بعد جهود جبّارة، على وعد الجيشين بعدم الحاق ادنى ضرر بمنطقة واقعة في جنوب مدينة شان هاي، فتكون مأوى امينا لغير المحاربين من اهل الصين . وقد بلغ عدد اللاجئين اليها ثلاثمئة الف، ومن العجب العجاب ان اليسوعي المذكور قد استطاع ، بمؤازرة المحسنين ، ايواء اولئك التعساء وتغذيتهم .

الاب قسطنطين ليفنس († ١٨٩٣) البلجيكي كان في الهند مواظباً على المدافعة الجريئة عن حقوق الفقراء ، حتى في المحاكم .

في عدة اقطار من افريقية واميركة كانت لمرسلينا حصة خطيرة في محاربة النخاسة .

من احدث رسالاتنا رسالة دياماتينو (Diamantino) في البرازيل، التي يسكنها بضعة آلاف من الهنود المتوحشين. قد انشأناها سنة ١٩٣٠ ، وفتحنا فيها اربع مدارس ابتدائية ، حديقة اطفال، ثلاث مدارس لتعليم الاشغال البيتية ، مدرسة زراعة ، مستشفى ، ثلاثة مستوصفات وملجأين للفقراء المسنين . منذ تأسيس

تلك الرسالة ، قد خطا اهاليها خطوة كبيرة في سبيل التمدن ، وكثرت غلات اراضيهم البالغة مساحتها نحو ثلاثمئة الف كيلو متر مربع .

لا يُعنى اليسوعيون في بلادهم وفي الرسالات بتقديس النفوس وتثقيف العقول فقط ، بل يتذرعون ايضاً بكل الوسائط ، لتحسين احوال المجتمع المادية ، على الاخص في خدمة العُمال والمرضى وذوي العاهات ؛ فلا مندوحة عن ايراد بعض الامثلة الجديدة على مساعيهم في هذا الميدان ، علاوةً على ما سبق ذكره .

مؤسسة العمل الشعبي — واسمها الفرنسي (Action Populaire) — قد انشأها في فرنسة الاب هنري لوا (Leroy) سنة ١٩٠٣ ، وهي من اعظم مؤسسات العالم الباذلة اقصى الجهد لتحسين احوال الناس الاجتماعية والاقتصادية ، ولا سيما احوال الشعب العامل . لا تزال تجمع الوثائق والمطبوعات المختصة بغايتها ، وتنظم المحاضرات والمؤتمرات ، وتنشر الكتب والمجلات ، لاصابة هدفها السامي .

الاب فليكس ڤولپت (Volpette) († ١٩٢٢) الفرنسي قضى شطراً كبيراً من حياته الرهبانية في تحسين احوال العمال المادية والادبية ، على الاخص بتسهيله لهم اقتناء بيوت صغيرة ، كلٌّ منها محاط بحديقة ، في ضواحي المدن . بعد موته جمع آلاف منهم المال اللازم لنصب تمثال يخلّد اجلالهم وشكرهم له .

مطبعتنا في بيروت قد سبقت سائر مطابع لبنان في دفع اجر عال لعُمالها ، وفي زيادته على حسب طول خدمتهم لها وتكاثر اولادهم ، وهي تقدم لهم في امراضهم علاج الاطباء بثمن زهيد .

قد عُني رهباننا بالمرضى على اختلاف اديانهم ، عناية خاصة ، فبلغت اقصى حدود التضحية حين انتشار الاوبئة . حسبنا برهاناً على ذلك ان ١١٩٠ منهم قد ماتوا ضحايا خدمتهم للمرضى من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٥٧ ، وان عدداً كبيراً منهم قد نالوا من عدة حكومات اعلى الاوسمة ، مكافأةً على بطولتهم في خدمة آلاف الجرحى ، إبان الحربين العالميتين الاخيرتين .

حول سنة ١٩٣٣ انتشر وباء الكوليرة انتشاراً هائلاً في الصين ، فمات الابوان الارلنديان سول (Saul) ومالك كلو (Mac Calough) بذلك المرض وهما يخدمان المصابين به .

يقوم اليسوعيون بخدمة آلاف من البرص في جزيرة كليون (Culion) ، من

الجزائر الفيلية ، وقد حصتها حكومة الولايات المتحدة بسكناهم . سنة ١٩٣٣ سافر من نيويورك الى تلك الجزيرة ثلاثة عشر يسوعياً ، لوقف بقية حياتهم على خدمة اولئك الاشقياء ، البالغ عددهم نحو ستة آلاف سنة ١٩٤٢ .

الاب حنا بيزيم (Beyzym) († ١٩١٢) البولوني قد انشأ مستشفى للبُرص في مدعسكر وخدمهم فيه ، فاصابته العدوى ومات ضحية بطولته .

كان لنا في بلاد الرسالات ، في رأس سنة ١٩٣٧ ، ٢٧ مستشفى ، عولج فيها ١٥،٠٠٠ مريض ونزيف ، و٣١٢ مستوصف وزع فيها اكثر من ١،١١٢،٠٠٠ دواء ، و١١٧ ميتم فيها ١١،٠٦٠ يتيم .

سنة ١٩٣٩ زادت تلك الاعداد زيادة كبيرة ، فصارت المستشفيات والمآوي سبعين ، فضلاً عن ١٥ مستشفى للبرص ، واصبحت المستوصفات ٣٤٩ ، والميامّ ١٥٥ .

قد بلغتُ الآن منتهى مقالاتي ، التي حاولت اذهال القراء عن طولها ، بجعلها على شبه فيلم سينمائي ، متنوع الالوان والمشاهد ، يصور لهم على جناح السرعة مراحل ترقي نفس اغناطيوس ده لويولا ، من قصر مهواة الرذيلة الى اوج القداسة ، ونجاحه العجيب ، الدائم طول حياته واربعمئة سنة بعد مماته ، في تجنيد آلاف مؤلفة من صفوة رجال كل أقطار العالم ، تحت راية رهبانيته ، ليدركوا في القداسة والعلم شأوًا بعيدًا ، ويبذلوا ذواتهم الى النسة الاخيرة ، بشجاعة الابطال وثباتهم ، لخدمة الله تعالى والبشر اولاده واخوتهم ، في أوطانهم وفي بلاد الرسالات ، بالوعظ والتهذيب والتعليم ، وبغيرها من انواع الوسائط المؤدية الى تحسين حال المجتمع الروحية والعقلية والمادية .

اغناطيوس الخاطئ قد تاب الى الله توبةً نصوحاً ، فحوّله مولاه الغفور الى قديس عظيم ووالد ربوات من الرهبان القديسين ، وجعلهم بين يديه القديرتين ، اللتين اوجدتا الكون من العدم ، ادوات افاض بها على ملايين البشر وابلًا من نعمه ، تزجو دوام إغداقه الى آخر الاجيال . ولا بدع بذلك ، فان الكيماوي الفرنسي هنري مواسان (Moissan) († ١٩٠٧) قد استطاع ان يحول قطعة فحم دقيقة سوداء الى الماسة ساطعة ؛ وشتّان ما بين قدرة الخالق وعجز خليقته !

○